قضية

روسيا وإيران: حليفان في مواجهة الغرب

في العيد السادس والثلاثين للثورة الإيرانية، تبدو الجمهورية الإسلامية في طريقها إلى تحقيق أهدافها القومية الكبرى. استعادت إيران موقعها كقوة إقليمية رئيسية معترف بها دوليا، إنما من موقع الاستقلال والاختلاف، وعاجلاً أو آجلاً، سوف تنتزع الاعتراف بها كدولة نووية، ليس بالضرورة من طريق الاتفاق مع الغرب؛ ذلك أن الحرب الباردة الجديدة، تفتح أمام الإيرانيين فرصة تعميق علاقة استراتيجية مع الاتحاد الروسي (والصين)، تؤذن بقفزة إيرانية على المستوى التنموي والدفاعي والتأثير السياسي والثقافي. ويبدو أن استثمار تلك الفرصة، يقع في الأولويات الإيرانية اليوم

سيواصل الروس، بناء المفاعلات الإيرانية، بغض النظر عن توقيع اتفاقية التسوية مع الغرب (أرشيف)

ناهض حتر

«أود توجيه السؤال التالي إلى (المبعوث الدولي في اليمن) السيد (جمال) بن عمر: ماذا يقول المواطنون عن الحوثي؟ ومَن هو، باعتقادك، عدو المجتمع الدولي في اليمن، الحوثي أم القاعدة؟». لم يكن هذا الموقف الحاسم الذي اتخذه المندوب الروسي في مجلس الأمن الدولي، فيتالي تشوركين، لمصلحة الحوثيين، مفاجئاً؛ هذه خطوة أولى نحو تبني الروس لمشروع «أنصار الله» لإدارة المرحلة الثورية الانتقالية في هذا البلد الذي يتوق إلى الاستقرار والبناء والتحرر من النفوذ السعودي والتهديد الإرهابي والتدخل الأميركي.

موسكو، المنخرطة في صراع عالمي ضد الغرب وحلفائه الفاشيين، العرقيين والدينيين، تدرك أن نجاح الثورة الحوثية، يصب في مصلحتها، لكن هناك، أيضا، الدبلوماسية الإيرانية التي أنشأت جسرا متينا بين الروس وثوريي اليمن.

إيران . التي تلح على رفض بحث الملفات الإقليمية مع الغرب، على هامش المفاوضات حول ملفها النووي . تعمل على توسيع نطاق التفاهم الاستراتيجي مع روسيا، حول تلك الملفات؛ بحيث يغدو تفاهم الدولتين حول سوريا، نموذجا ينطبق على العراق واليمن والبحرين .. ومصر، وعلى الموقف من السعودية والنفوذ الأميركي في المنطقة، وعلى التعاون في مكافحة الإرهاب.

هذا ملخّص ما قاله لي مصدر رفيع في الخارجية الإيرانية، كان يعتذر لي عن لقاء مقرر مع مستشار المرشد، علي أكبر ولايتي الذي كان لحظتها في طريقه إلى موسكو، في زيارة طارئة، حاملا رسالة من السيد علي الخامنئي إلى الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين.

العلاقة الاستراتيجية مع روسيا هي الأكثر حضورا بين موضوعات النقاش في طهران اليوم؛ يقول الإيرانيون إن موسكو أضاعت عقدا ونصف عقد من فرص التحالف بين الدولتين، والآن يجب تكثيف العمل المشترك.

في العقد الأول من الثورة الاسلامية في إيران، كان الصراع الأيديولوجي طاغيا على العلاقات مع روسيا السوفياتية التي كان العراق بزعامة الرئيس الراحل صدام حسين، حليفا تقليديا لها. ومع أن موسكو كانت ضد الحرب بين الدولتين الشقيقتين، فإنها كانت، بطبيعة الحال، ميّالة إلى العراقيين، ومجروحة من حملة القمع التي واجهها الحزب الشيوعي الإيراني (توده).

لكن الروس انتقلوا، في العقد التالي بين الـ90 والألفين، من الأيديولوجيا الشيوعية إلى أحضان الغرب؛ كانوا يتطلعون إلى الانخراط في العالم الغربي، فلم تعد إيران لتعنيهم، ايجابا أو سلبا. وفي مطلع التسعينيات، اصطف الإيرانيون، عمليا، مع الغرب ضد روسيا الضعيفة في يوغسلافيا السابقة؛ كان حافز الإيرانيين، أيديولوجيا؛ توجهوا إلى نصرة البوسنة المسلمة في مواجهة الصرب الأرثوذكس الذين طالما دعموا صدام حسين.

حين تربع بوتين على عرش الكرملين، وبدأ بتنفيذ خطة انقاذ روسيا والحفاظ على وحدتها واستقلالها وتعزيز قدراتها الاقتصادية والدفاعية، كان لا يزال يأمل شراكة ندية مع الغرب؛ حتى وقت قريب كان الخطاب الدبلوماسي الروسي، يتحدث عن «شركائنا الغربيين». وقد انعكست هذه السياسة المزدوجة على النظرة الروسية نحو إيران؛ من جهة، بدأت تنشأ علاقات ثنائية تعزز المصالح الروسية، ومن جهة أخرى، ظلت موسكو على الحياد السلبي في المواجهة الإيرانية . الغربية؛ فأيدت والتزمت العقوبات الأممية على طهران، المفروضة عليها بحجة المخاوف من عسكرة برنامجها النووي.

في فترة بوتين، وخصوصا منذ فرض العقوبات على الجمهورية الإسلامية، كانت طهران تقترح على موسكو، وتسعى لبناء علاقات استراتيجية معها، لكن الكرملين كان لا يزال يأخذ بالحسبان، رد فعل الغرب.

روسيا وإيران معا، واجهتا مطلع ما يسمى «الربيع العربي»، باضطراب؛ موسكو ارتكبت خطأها الكبير الذي ستندم عليه لاحقا بتمرير قرار ضرب ليبيا بحجة مساعدة «الثوار»، أما طهران، فقد ذهبت إلى وصف ما يجري في العالم العربي بأنه « صحوة إسلامية»، قبل أن يتبين أن هذه «الصحوة «، طائفية وتكفيرية وإرهابية.

الحليفان المقبلان اصطدما بالواقع المر من خلال هجمة « الربيع» الأسود على الحليف المشترك، سوريا؛ فبدأ يتقاربان وينسقان سياساتهما واجراءاتهما للحيلولة دون وقوع هذا البلد المركزي، جيوسياسيا، في أيدي الغرب والعصابات التكفيرية والميليشيات العميلة.

رئيس لجنة الأمن القومي في مجلس الشورى الإيراني، علاء الدين برو جردي، لاحظ، في حديث خاص معه، أن نقطة التحوّل النوعية في العلاقات الروسية الإيرانية، تمثلت في انفجار الأزمة في أوكرانيا، وما تبعها من هجمة أميركية وغربية شرسة على روسيا؛ اغتصاب حياد الجار الأوكراني، والتهديد العسكري، والعقوبات المؤذية، والخفض الاصطناعي لأسعار النفط، وحتى التلويح بإثارة العصابات الإرهابية في الشيشان وسواها من الجمهوريات الروسية المسلمة.

وجدت موسكو أنها تقف، موضوعيا، مع إيران، في الخندق نفسه، وإزاء الأعداء أنفسهم؛ هكذا انفتح الأفق لتحريك عجلة العلاقات الاستراتيجية بين الدولتين اللتين تمثلان، مع الصين، عناوين نهضة الشرق.

مضمون السياسة الإيرانية نحو روسيا، ليس جديدا ولا طارئا؛ بل هو مؤسس في الفكر الاستراتيجي للإمام الخميني الذي كان يرى أن ميزان القوى العالمي يستقيم مع «روسيا مقتدرة وإيران مستقلة».

يعكس هذا الشعار، جملةً معقدةً من الاعتبارات التاريخية والجيوسياسية والاستراتيجية؛ كانت روسيا القيصرية مقتدرة

> **الحليفان اصطدما بالواقع المر من خلال هجمة «الربيع» الأسود على الحليف المشترك، سوريا**

لكنها كانت تفرض حمايتها على الشمال الإيراني، بينما كانت بريطانيا متنفذة في جنوب البلاد؛ القيصرية وقفت ضد النزعات التحررية للإيرانيين، وكانت القوة الرئيسية في قمع الثورة الدستورية الديموقراطية لعام 1906، المعروفة بـ «المشروطة». كذلك، فإن روسيا السوفياتية، حالما أصبحت «مقتدرة» خلال وبعيد الحرب العالمية الثانية، فرضت وجودها العسكري وحضورها السياسي في إيران، ودعمت انشاء جمهورية «مهاباد» لأكراد إيران، وظلت تمثل عاملا رئيسيا في السياسة الإيرانية إلى ان فرض الأميركيون نفوذهم على إيران بعد إطاحة مصدّق، لكن الحضور الأميركي الذي اجتثته الثورة الإسلامية، كان، بالأساس، سطحيا؛ فلم يتجذر في الثقافة المحلية، وبين النخب التي لا يزال فيها، حتى اليوم، متعاطفون مع روسيا .. وآخرون مع بريطانيا!

هؤلاء الذين سماهم مصدر إيراني «عملاء الإنكليز»، سوف يجري اقصاؤهم عن مواقعهم، بحسب تأكيده، في صيف عام 2015.

بالنسبة إلي، اعتقد أن هذا الوعيد مرتبط بإمكانية فشل توقيع اتفاقية تسوية الملف النووي مع الغرب.

لا يزال التاريخ حاضرا في شارع الجمهورية، المتفرع عن شارع فردوسي؛ هناك تتواجه السفارتان اللتان تعودان إلى القرن التاسع عشر، في وسط طهران، وتعبّران، بالاتساع المفرط للعقار، وضخامة المباني الكلاسيكية، وانسراح الحدائق الغناء، وعلو الأشجار والأسوار . عن الماضي الامبراطوري للتنافس الروسي . البريطاني في إيران، وعليها.

لكن الذاكرة التاريخية لا تلغي الواقع الجيوسياسي؛ روسيا ليست بريطانيا أو الولايات المتحدة اللتين يمكن طردهما من المنطقة، روسيا هي الجار الأكبر لإيران، ودكتاتورية الجغرافيا تفرض أشكالا متنوعة من العلاقات الثنائية، في كافة الحقول، الاقتصادية والدفاعية الخ.

وعلى المستوى الاستراتيجي، يمثل التحالف بين البلدين الكبيرين، قلعة حصينة لمصالحهما، ومصالح حلفائهما. غير أن تحالفا كذاك، ينبغي، بالطبع، ألا يمسّ باستقلال إيران.

روسيا الضعيفة هي مدخل لإيذاء الجمهورية الإسلامية، لكن الثورة الإيرانية، كانت، بالأساس، ثورة استقلال لا يمكن التفريط به لمصلحة أي تحالف؛ بل إن رئيس مؤسسة «كيهان» الصحافية، حسين شريعتمداري، يرفض استخدام مصطلح «التحالف»، ويلح على مصطلح «العلاقة الاستراتيجية». وفي هذا التمييز الدقيق بين المصطلحين، يظهر التشدد الإيراني في التوجه الاستقلالي الصارم.

إلا أن هذا السجال لا يبدو أساسيا،

اتفاق... لا اتفاق؟

حين خرجت من مكتب رئيس هيئة الطاقة الذرية الإيرانية، صالحي، بدا لي أن الإيرانيين والغربيين يتجهون نحو التوافق في ما يخص الملف النووي؛ أوضح صالحي أن جميع العقبات الفنية العالقة في هذا الملف، قد جرى تجاوزها، أو أن هنالك أفكاراً إيرانية لتجاوزها. بالمقابل، كان شريعتمداري حاسما لجهة القول إن الاتفاق مع الغرب، ليس ممكنا؛ تحليل وجد صداه في إشارة خامنئي إلى أن الولايات المتحدة «معادية، في الأصل، للشعب والثورة في إيران».

يرى شريعتمداري أن تحقيق مطلب الرفع الكامل للعقوبات الدولية والثنائية . وهو شرط لا بد منه بالنسبة إلى القيادة الإيرانية . هو انتصار للشعب الإيراني لن يقبله الغرب الذي يسعى للحفاظ على هيمنته العالمية، بكل الوسائل، بما فيها العقوبات والمؤامرات والحروب الإقليمية؛ ليس هناك، إذاً، امكانية لاتفاق نووي جيد بالنسبة إلى إيران،» يحافظ . بتعبير خامنئي . على مصالح الجمهورية الإسلامية وكرامتها»».